كلمة الموسوعة العربية

ألقاها الأستاذ الدكتور محمد وليد الجلاد

الأستاذ الدكتور مروان محاسني رئيس مجمع اللغة العربية المحترم

الأساتذة أعضاء المجمع الموقرون

السادة الحضور

تحية وبعد

يشرفني أن أقف بينكم اليوم لأتحدث عن فقيدتنا الغالية العزيزة على نفسي، والتي أكنُّ لها بالغ الاحترام والتقدير، لما عرفته منها من تواضع العلماء ووقار الأجلاّء إلى جانب المعرفة العميقة والاطلاع الواسع.

عرفتها أول مرة، مديرةً للتجهيز الثانية للبنات في دمشق، وقت كانت إحدى قريباتي طالبة فيها. وعرفتها مرة ثانية في أواسط السبعينيّات من القرن الماضي، أستاذة مادة التاريخ الحديث في جامعة دمشق حين كُلِّفت، أنا وبعض زملائي، دراسة تشكيل لجنة متابعة لموسوعة عربية شاملة، وقد ضمت اللجنة خبراء من كبار الأساتذة في سورية والبلاد العربية، وكانت مهمتها الإعداد لإصدار موسوعة عربية شاملة. وكنت أمين سر تلك اللجنة. وكان اللقاء الثاني مع الدكتورة ليلى لاستشفاف رأيها حول الموسوعة العربية. وقد تُوِّجت جهود كل من شارك في هذا الإعداد بصدور المرسوم التشريعي/ ٣/ لعام ١٩٨١ بإحداث هيئة الموسوعة العربية، وتعيين المرحوم الدكتور شاكر الفحام مديرًا عامًا للهيئة يعاونه مجلس إدارة مؤقت.

وانصرمت بضع سنوات من العمل الجاد من أجل تهيئة الأُطُر اللازمة للهيئة واستصدار أنظمتها، ووضع الخطط والتصورات الضرورية لاختيار الموضوعات التي ستتناولها الموسوعة.

وفي الشهر التاسع من العام ١٩٨٤، وبعد أن تكاملت وجهات النظر المختلفة، صدر النظام الداخلي لهيئة الموسوعة العربية، الذي حدد أهداف الهيئة ومهامها وجهازها الإداري والعلمي، ونص على أن تضم الهيئة ثمانية أقسام علمية يختص كل قسم منها بناحية من نواحي المعرفة، ووقع الاختيار على المرحومة الدكتورة ليلى الصباغ لتكون أول رئيس لقسم الحضارة العربية في الهيئة، لما عهد عنها من سعة الاطلاع وتعمقها في هذا المجال.

وهنا كان اللقاء الثالث بيني وبينها بصفتي مديرًا لإدارة الوثائق والاتصالات العلمية في هيئة الموسوعة العربية. ومرت الأيام سريعة، بضع سنوات، ونحن نعمل معًا في اجتماعات يومية وجلسات أسبوعية، حتى تكامل المساق العام للموسوعة العربية، وشرعنا في توصيف موضوعاتها وانتقاء الباحثين وتكليفهم. وفي عام ١٩٨٨ طلبت المرحومة الدكتورة ليلى إعفاءها من العمل في الموسوعة. ولما سألتها عن السبب قالت، على ما أذكر، إنها تريد أن تتفرغ لإنجاز مشروعات كثيرة في ذهنها، وتريد أن تنتهي من نشر عدة كتب من تأليفها، وأن العمل في هيئة الموسوعة يشغل الكثير من وقتها.

أقف هنا، لأسترجع بعض ما بقي في ذاكرني من أعمالها القيمة في هيئة الموسوعة العربية، وعنايتها الفائقة في انتقاء الموضوعات التي تخص قسم الحضارة العربية. ومع أن قسم الحضارة العربية ضم عددًا من الأساتذة رؤساء الشعب والخبراء المتخصصين، فقد وقع العبء الأكبر من العمل على عاتقها، ولا سيما ما يتصل بانتقاء موضوعات مساق القسم. وهو مجهود لا يمكن تصور حجمه إلا لمن عاناه، ولا سيما في مراحل التأسيس الأولى. فقد كان عليها أن تراجع أمهات المصادر التاريخية والتراثية ومعاجم الأعلام

والموسوعات المتخصصة لتنتقي من كنوز الحضارة العربية ما يجب أن تضمه الموسوعة بين دفتيها. ولم يكن عملنا في هيئة الموسوعة العربية آنئذ مؤتمتاً، فكان على المرحومة أن تملأ بقلمها ما لا يقل عن خمسة آلاف جذاذة معلومات، استقتها من موسوعة الإسلام ومعاجم الأعلام وكتب السيرة والتاريخ والأنساب والشريعة واللغة وغيرها. وقد سلَّمت إليّ كلَّ ما أنجزتْهُ حتى ذلك الحين، واضطررتُ، بعد أن غادرتِ الهيئة، إلى مراجعة تلك الجذاذات مع أعضاء القسم لغربلتها، وانتقاء ما يُماشي نهجَ الموسوعة وهدفها، ثُم عرضها على مجلس الإدارة لإقرارها، ودمجها في مساقات الأقسام الأخرى في الهيئة وفق الترتيب الهجائي.

لم تكن جذاذت مساق قسم الحضارة العمل الوحيد الذي أنجزته الدكتورة ليلى للموسوعة، فقد كان من صلب عملها وضع التوصيف المقترح لكل بحث من بحوث مساق قسم الحضارة العربية بعد الموافقة عليه، وانتقاء الباحثين وتكليفهم كتابة البحوث، ثم مراجعة ما أعد منها، وإقرارها. كما أنها أعدت بقلمها كثيرًا من بحوث القسم، وخاصة تلك التي تبدأ بالحروف الأولى من حروف المعجم، واستمرت تكتب للموسوعة حتى بعد أن تخلت عن التفرغ للعمل في الهيئة. ومما يؤسف له أن ما قرأته مما نشر عن سيرة المرحومة ليلى الصباغ بعد وفاتها لم يتطرق ولو بكلمة واحدة إلى عملها وإنجازاتها في هيئة الموسوعة العربية طَوال سنين أربع.

الحقَّ أقول، إن المرحومة الدكتورة ليلى الصباغ كانت علاّمة بكل ما في الكلمة من معنى، وباحثة متعمقة ورائدة من رواد الفكر في الوطن العربي، جمعت بين الأدب والتاريخ، بمنهجية علمية صارمة في التأريخ والتحقيق، لا تتوانى عن البحث في أدق التفاصيل، وتتعمق فيها غير عابئة بالصعوبات التي تعترض طريقها. تحرص حرصًا شديدًا على مواكبة العصر غير مبتعدة عن الجذور، على صعوبة تلك المعادلة بين الطرفين.

تركز على الهوية واللغة وقراءة التاريخ والعبرة منه في خدمة المجتمع، إلى جانب عنايتها بالجانب النسائي في السياسة والأدب. وقورة إلى درجة الكمال، متفهمة غاية في التفهم، تقدر الناس حق قدرهم، وتحترم الجميع.

لقد كان فقدها خسارة كبيرة لصرح الثقافة في سورية، فهي معلم من معالم دمشق في الفكر والأدب والتربية والتاريخ، وجزء لا ينفصم من تاريخ الشام الحديث. تركت بصمات واضحة في كل المجالات التي طرقتها، واستحقت التكريم أينما وجدت. ويكفيها أنها كانت الأولى في كل عمل أسند إليها، وأنها العضو النسائي الأول في مجمع اللغة العربية بدمشق منذ تأسيسه عام ١٩٢٢.

وشكرًا لاستماعكم.